الكلمة العلمية

تعددت دوافع العُنف وتنوعت مظاهرُه، وتفاوتت مخاطرُه بين الحدود القُصوى والحدود الدُنيا. ولم يكن السلُوك العنيفُ وليد حقبة تاريخية مُعيّنة دون أخرى، بل ارتبط ظهوره بالوجود الإنساني الاجتماعي، وما يزال هذا السلوك يستيقظ في الإنسان، مثل استيقاظ البراكين، مُخالفا بذلك اعتقاد بعض المُتخصصين في دراسة ظاهرة العُنف، والمُتمثل في أن السلوكيات العنيفة ومظاهرها الهمجية تراجعت بفعل تأثير الحداثة. فالسلّم التاريخي يُظهر لنا – وفق ما يُشير إلى ذلك الفيلسوف جورج لبيك - إلى أي حد امتزجت فيه قمّة الحضارة التي بلغتها الإنسانية، في السنوات الأولى من الألفية الثالثة، مع انفجار العُنف وانتشاره الخطير وتعدّد مظاهره بشكل ليس له مثيل في القرون الماضية.

وهذا ما يصنع مفارقة هذا العصر، الذي يُقدم من جهة مظاهر التقدم و التطور، من خلال الكم الهائل المتراكم، من الاكتشافات والاختراعات والثورات العلمية، في كل ميادين البحث بصورة لا نظير لها، ولكنه يعرف من جهة أخرى همجية وبربرية أُلصقت زورا وبُهتانا بالشعوب البدائية والأهلية. فانتشر الاستغلال والتحرُش في أماكن العمل، التمييز العنصري، ومشاعر وسلوكيات الاحتقار ضد المهاجرين والأقليات، والانتحار الذي يعرف تزايدا مثيرا للقلق، وتزايد نسبة الجريمة واختطاف الأطفال والاعتداء عليهم جنسيا والتنكيل بهم، والعُنف ضد النساء وضد المُسنين، وعمالة الأطفال، ومظاهر استعباد النساء وإرغامهن بالعُنف على البغاء، واغتصابهن وانتشار العُنف في المؤسسات التربوية المدرسة، ومظاهر أخرى كثيرة.

لقد أدى التطور الحضاري للإنسان، وما ترتب عنه من تحولات عميقة في الحياة الاجتماعية، إلى تغيّر القيّم والمعايير الاجتماعية؛ أفرزت عدّة مظاهر سلوكية، متراوحة بين المؤذية والمأسوية، حيث أصبح ما يصدق على العُنف يشمل – حسبما يُشير إليه المُهتمون بهذه الظاهرة - تدرجات تبدأ:

- من السلوكات اللاحضارية إلى المجازر.
- ومن الكلام البذيء إلى الإرهاب.
- ومن الجريمة، و جريمة الشرف إلى التعذيب.
- ومن الاعتداء الجنسي على الأطفال والنساء إلى الثورة.
- ومن المعاناة ومتولداتها من العُنف المُضاد إلى الانتحار.
- ومن العُنف الخاص إلى العُنف العام.

وهو ما جعل ظاهرة العُنف، من حيث شمُولها لأشكال ومظاهر مُتعدّدة، أحد المواضيع التي استقطبت الاهتمام، وقد حدد بعض المتخصصين في دراسته، بداية ذلك الاهتمام به إلى الفترة ما بين الثمانينات والتسعينات. وأُدرجت ضمن ماصدقه أشكال جديدة لم تكُن مُدرجة ضمن أشكال ومظاهر العُنف التي أخضعت للدراسة، بل كانت تُعتبر كجزء من الحياة الخاصة، كالمُعاملة القاسية والعنيفة اتجاه الأطفال

والنساء والخادمات، داخل البيت، والمُتعلم في المدرسة والكتّاب، والعامل في المشغل، وضد السجين. وهو ما رسّخ القناعة العلمية بأن الموقع الذي يحتله العُنف في الوقت الراهن، بمُختلف أشكاله، أصبح أكثر أهمية مما كان عليه.

ومع ذلك فإن التفكير في هذه الأشكال يضعنا أمام مُفارقة الاهتمام الواسع الذي اكتسبه موضوع العُنف إلاّ أن فهمه في المقابل مايزال ناقصا. وعلى الرغم من الإجماع على إدانته إلاّ أن هذه الإدانة لم تُؤد إلى تقليصه والتقليل من تداعياته السلبية. ولذلك أضحت المُقاربات الجديدة للعُنف، تقتضي تناوله ضمن علاقة أو نسق، لأن العُنف – برأي جورج لبيك - ليس مفهوما، يُمكن تعريفه بسهولة؛ ذلك أن كل التعاريف المعجمية أو حتى تلك التي تتخذه كموضوع، تكتفي في تعريفه على العد الوصفي، والوقوف عند الضرر الذي يحدثه وتغيّب النسق أو البُنية التي ظهر فيها؛ وهو مل جعل الدراسات والبحوث المُعاصرة تميل إلى مُقاربته كمُمارسة مُلازمة للعلاقات الاجتماعية، تُعبّر عن أشكال عديدة تتخذها هذه العلاقات. وأنه لا يوجد عُنف إلا في موقف مُعيّن. وأن السلوك العنيف يجب أن يُدرس ويُحلّل ضمن سياقه، حتى تتّم الوقاية منه.

ومحاولة منا مجاراة هذا التوجه العلمي والمنهجي في دراسة العُنف، يأتي هذا المُلتقى العلمي الذي يعقده قسم العلوم الاجتماعية. والذي نرجو أن نكون قد أسهمنا فيه ولو باللبنة المُؤسسة للبحث فيه والسعي للتصدي له. كما أرجو أن يجد فيه جميعنا مُبتغاه العلمي – المعرفي والمنهجي والمقارباتي – والعملي –السلوكي والأخلاقي -.

الدكتور بن عون بن عتو
المُنسق العلمي للمُلتقى